

كيف تحول المحنة إلى منحة؟



المحن من السنن الماضية في الناس، قال سبحانه: (تَذَارَكَ الَّذِي بَرِيْدَهُ
الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الملك/ 1-2).

والحكماء ذوو الألباب والإيمان هم الذين يحوّلون الخسائر إلى أرباح، والنوازل إلى نجاة، والمحن إلى منحة.. فباستطاعة كلٍّ عاقل أن يحوّل المالح أو الحامض إلى حلو، أَلَمْ تَذُقْ طعم الليمونة ذات الطعم الحمضي المالح قبل أن يضاف إليها السكر؟ إنك بقليل من حبات السكر تحوّل الليمون ذا الطعم الحامض المالح، إلى شراب حلو المذاق!!

أمّا الجاهل فهو الذي يضاعف المصيبة، ويزيد حجم الخسائر، فلا يرضى بها، ولا يستطيع أن يتعامل معها، يتذمر، ويتأزم، فيزداد سوءاً، وربما أهلك نفسه.

جاء في كتاب "دع القلق"، للمؤلف الأمريكي المشهور "دايل كارينجي" أن "أحد الأشخاص في مدينة بروكين" بالولايات المتحدة قد أصيب بقرحة شديدة في "الاثني عشر"، وقد تورمت واشتدت، حتى أشار عليه الأطباء بكتابة وصيته استعداداً للرحيل من الدنيا إلى الآخرة، فترك الرجل وظيفته الكبيرة التي كان يشغلها، وقبع في بيته ينتظر الموت!!

وبينما هو يفكر في أمره، إذا به يتخذ قراراً أدهش من حوله.. لقد قرّر أن يحقق ما كان يتمناه طوال حياته، وهو أن يطوف العالم، وقال: ما دمت سأعيش شهوراً معدودة كما قال الأطباء.. فلماذا لا أحقق ما أتمناه؟ وقام فعلاً بالحجز على أوّل رحلة بحرية حول العالم، بعد أن اصطحب معه الوصية والتابوت، كما قرر أن يأكل ويشرب كلّ ما يحبه ويتمناه، وما كان محروماً منه في أثناء مرضه، ثمّ سافر الرجل واستمتع برحلته حول العالم، وقد استغرقت رحلته شهرين، عاد بعدها معافى من مرضه، وقد استعاد وظيفته وعاش بعد ذلك حقبة من الزمن سعيداً مستقراً.

وعلى امتداد الزمن نجد نماذج بشرية مبهرة، جديرة بالدراسة والتأمل، كي نستلهم منها الحكمة،

ونتعلم منها الدرس، ونكتسب منها الخبرة، ونزداد من قصصهم عبراً وعظات وإيماناً.

نموذج يوسف (ع):

إنَّه ذلك النموذج العظيم، الذي أفرد الله عز وجل له سورة، على غير المنهج القصصي في القرآن الكريم.

يقول الإمام القرطبي: ذكر الله أفاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف (ع) ولم يكررها، فلم يقدِّر مخالفاً على معارضة المكرر، ولم يقدِّر مخالفاً على معارضته غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل، وصدق الله: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيَّنَّ يَدَايِهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف/ 111).

لقد نزل الله عز وجل في نبيه الممتحن الصابر "يوسف" سورة فريدة في ألفاظها، وتعبيراتها، ممتعة لطيفة، تسري في النفس سريان الدم في العروق، ورغم أنَّها من السور المكية التي تركز على الإنذار والوعيد، حيث شاع فيها جو الرحمة والأنس والحنان، حتى قال خالد بن معدان: "سورتا يوسف ومريم مما يتفكه به أهل الجنة في الجنة".

وفال عطاء: "لا يسْمَع سورة يوسف محزون إلا استراح" (حاشية الصاوي على تفسير الجلالين).

ومما يؤكد ذلك ويؤيده أن سورة يوسف نزلت على النبي (ص) بعد سورة هود، حيث توالى عليه الشدائد وعلى المؤمنين، وخاصة بعد أن فقد ناصر يه: فقد زوجه خديجة - رضي الله عنها - التي واسته بمالها وكلماتها، وحسن دفاعها، كما فقد عمه أبا طالب الذي كان محل هيبة وتقدير من قريش.

إذن.. اشتد أذى الأعداء لرسول الله (ص)، وكانت فترة عصيبة، فنزلت سورة يوسف تسلية له وتخفيفاً عنه، وكان الله عز وجل يقول لنبيه: لا تحزن يا محمد، ولا تنفجع لتكذيب قومك وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجاً، وإن بعد الضيق مخرجاً.. انظر إلى أخيك يوسف كيف نقله الله من المحنة إلى المحنة، فعاش حياة الطمأنينة والراحة والبشر والأنس، وجعل الله قصته بلسماً للبائسين، وعلاجاً للمبتلين، فجاءت سورة يوسف بأروع الأخبار وأمتعها، تبشر كل مكروب بقرب الفرج، حتى يعيش كل مبدئلي على هذا الأمل، ومن ثم يستطيع - بحول الله وقوته - أن يحول المحنة إلى منحة.

لقد مرَّ يوسف (ع) في حياته بعدة محن، عاش محنة كيد إخوته له، ثم محنة البئر الذي ألغوه في غيابه (أي في قعره) وظلمته، ووحشته، وغربته والخوف، كما واجه (ع) محنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى أخرى، دون إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله، كما واجهته محنة كيد امرأة العزيز والنسوة، ومحنة السجن بعد رغد العيش في قصر العزيز.

لقد خرج يوسف (ع) من هذه المحن على اختلاف صنوفها، واستطاع برعاية ربه عز وجل أن يجتازها كلها متجرباً خالصاً، واستطاع أن ينتصر عليها، فقد من الله عليه ومكّنه في الأرض، وكان وزيراً للاقتصاد في مصر آنذاك، وجمع الله بينه وبين أبويه وإخوته، وتحققت رؤياه، وها هو ذا يوجز رحلته مع تلك المحن، ويبرز المنح التي أثمرتها هذه المحن لمّا صبر وتجرّد لربه سبحانه، إذ يقول رب العزة عز وجل على لسان يوسف (ع): (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنِّي شَأْنُ اللَّهِ أَمْنٌ بَيْنَ * وَرَفِيعَ أَبَوَاهُ عَلَى الْغُرَشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَنِي رَبِّي حَافِظًا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ إِنَّ نَزْعَ الشُّبَّانِ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (يوسف/ 99-101).

إِنَّهُ نَمُودَجٌ عَظِيمٌ فِي الصَّبْرِ عَلَى الصَّرَاءِ، سَجَلَهُ رَبُّ الْعِزَّةِ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ يَقُولُهُ تَعَالَى:
(وَأَيُّ يُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنْ نَبِّ مَسَّ نَضِي الصُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء / 84-83).

فقصة أيوب من أروع القصص المؤثرة التي تبيّن لنا كيف نجتاز المحنة ونحولها إلى منحة، والآيتان المذكورتان - أنفاً - تُجملان القصة دون تفصيل، فتعرضان دعاء أيوب (ع) وسرعة استجابة ربه لدعائه، ففي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب الذي جعله يدعو بدعاء كلاً أدب واجة إلى الله تعالى كانت الاستجابة الربانية السريعة، إذ لم يزد أيوب (ع) في دعائه على قوله: (أَنْ نَبِّ مَسَّ نَضِي الصُّرُّ)، ووصف ربه تعالى: (وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)، فكانت الرحمة الإلهية التي أنهت المحنة والابتلاء، حيث رفع الله عنه ضره في بدنه فشفاه وعافاه، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عن فقد منهم، ورزقه مثلهم، وقيل: هم أبناؤه، فوهب الله لهم مثلهم، أو أنزه وهب له أبناءً وأحفاداً.

ففي محنة أيوب درس للبشرية كلاًها، وفي صبر أيوب عبرة للبشرية كلاًها، وإنّه لنموذج في الصبر والأدب وحسن التعامل مع المحن وحسن العاقبة، وإنّه لمستوى راق تتطلع إليه الأبصار وتتمناه النفوس.

نموذج يونس (ع):

لقد أتت قصة يونس في أكثر من موضع من القرآن الكريم، ومن بين هذه المواضع ورودها مجملة موجزة في سورة الأنبياء، ومفصلة في سورة الصافات، ففي سورة الأنبياء ذكر الله تعالى ذا النون وهو يونس (ع) في قوله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء / 88-87).

وقصة ذلك أنّه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه، فضاق بهم صدراً، وتركهم مغاضباً، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم، طناً منه أن الله لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة، والقرى كثيرة، والأقوام متعددون.

وقاده غضبه وضيقه إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة فركب فيها، حتى إذا كانت في اللجة ثقلت، وقال ربانها: لا بدّ من إلقاء أحد ركبائها في البحر كي لا تغرق، فساهموا (أي أجروا قرعة)، ف وقعت على يونس فألقوه أو ألقى بنفسه، فالتقمه الحوت، مضطجاً عليه أشد الضيق، فلما كان في الظلمات، ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل نادى: (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (الصافات / 87)، فاستجاب الله دعاءه، ونجّاه من الغم الذي هو فيه، ولفظه الحوت على الساحل.

* أستاذ المناهج وأساليب التربية الإسلامية المساعد

المصدر: مجلة المجتمع/ العدد 1936 لسنة 2011م

